الفصل الأخير

مراثي

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

1 د. حلمي نمر .. منظومة كاملة من القيم

ودعته جامعة القاهرة بجميع أجيالها، هؤلاء الذين زاملوه فى مسيرته الجامعية الطويلة من رفاق المهنة، وممن تتلمذوا على يديه وأصبحوا عمداء ورؤساء أقسام وأساتذة وباحثين لا يزالون يواصلون السعى محملين بكل القيم المقدسة التى غرسها فيهم.

والتى جسدها بمواقفه الشجاعة وانحيازه اللا مشروط للجامعة كمؤسسة علمية وتربوية وكمنارة للفكر وللضمير وكصرح مهيب يعلو فوق الأهواء والمصالح الفردية الضيقة، والتقلبات السياسية الطارئة، كان موكباً حزيناً شهدته أروقة الجامعة العريقة التى انتمى إليها الدكتور حلمى نمر ومنحها بسخاء وإخلاص عطاء علمياً ممتداً وباقة ناصعة من القيم والمبادئ كرسها بالعديد من المواقف المبدئية والمبادرات الجسورة والترفع عن الصغائر والمغريات، التى انحنت أمامها الكثير من الهامات والرؤوس كان المشهد الحزين يضم المئات من النساء والرجال من الأكاديميين، ورجال العلم والحكام الذين عاصروه وتعاملوا معه عن قرب استاذاً جامعياً بالمعنى الحقيقى ونقيباً لأبناء مهنته، ومواطناً مصرياً مهموماً بقضايا الوطن والجامعة، التفوا حول الجسد المسجى فى ساحة الجامعة يملؤهم الحزن والأسى وتملأ نفوسهم المرارة والجزع لأنهم كانوا يدركون أن رحيل هذا العالم الجليل لا يعنى فقط غياب أحد العمد البارزة فى تاريخ جامعة القاهرة ولكن يعنى فى الأساس غياب منظومة كاملة من القيم الجامعية والوطنية.

obeikan.com

كان يملك بصيرة مضيئة يسندها ضمير لم ينطفئ بفعل بريق زائف أو مخاوف وهمية كان قوياً باستغنائه وترفعه المثير للانبهار والإعجاب لم تبهره المناصب، وبقى حلمى نمر نموذجاً وقدوة لجميع المخلصين والشرفاء الصامتين، والذين آن الوقت كى يترجموا أحزانهم إلى مواقف وسلوكيات تؤكد أن الراحل العظيم قد غادرنا بجسده فقط وسيبقى لنا تراثه الشامخ من القيم والمواقف.

الأهرام – ٢٢/٦/ ٢٠٠٠

obeikan.com

2 د. خليل صابات أستاذنا الجليل

برحيل أستاذنا الدكتور خليل صابات تنطوى صفحة مضيئة من عصر الأساتذة العظام والرواد الأفاضل، لقد استطاع رغم انتمائه إلى اقلية مسيحية نزحت من الشام على مصر فى أوائل القرن إلا أنه استطاع بصبره واجتهاده أن يشغل مكانة مرموقة بين أساتذة الصحافة بل أصبح رائداً حقيقياً للدراسات الصحفية والإعلامية فى العالم العربى واستطاع بعطائه وذكائه أن يحتوى ويرعى بإخلاص جميع المخالفين له فى الرأى من تلاميذه العديدين، نجح فى أن يرعى الباحثين من مختلف التيارات الفكرية والسياسية، سواء من الإسلاميين أو الناصريين أو الماركسيين حتى هؤلاء الذين لم يحددوا لهم موقفاً من الحياة والفكر. كان حريصاً على أن يشارك فى أفراحنا وأحزاننا برحابة وإصرار وعذوبة نادرة.

معذرة أستاذنا الجيل لقد حملتنا أمانة نأمل أن نكون جديرين بحملها، وحاولت أن تغرس فينا قدسية الانتماء للعمل والتعليم والعطاء بسخاء وبلا شروط لطلابنا.. تعلمنا منك الجدية والإخلاص للمدرج والدقة والموضوعية لبحوثنا والاحترام وسعة الصدر لكل من يخالفوننا فى الرأى والمذهب والعقيدة.. تعلمنا منك مراعاة مشاعر الصغير قبل الكبير ومساندة كل طلاب العلم مهما اختلفت قدراتهم أو نواياهم لقد تركت لنا تجربة إنسانية زاخرة بكل ما هو جميل ومثير للتأمل.. تعلمنا منك كيف نزهو بمهنتنا ولا نضعف أو نهن أمام الصعوبات التى تحاصر هذه المهنة الجليلة. رسمت لنا درباً شاقاً تختلط فيه المباهج والآمال بالمعاناة والعثرات.

أستاذى الجليل اعذرنا إذا قصرنا ولم نمنح طلابنا ما منحته لنا من قدرة على تحمل حماقاتنا وصغائرنا وإحباطاتنا.. اعذرنا إذا قصرت همتنا وضاقت صدورنا بمن يخالفوننا فى الرأى والفكر.. اعذرنا إذا لم تهبنا الأقدار قدرتك الفذة على احتواء نقاط الضعف البشرية لدى المكابرين والمحصورين فى ذواتهم الضيقة.. اعذرنا إذا لم نتحل بقدر ضئيل مما أوتيت من الصبر والمثابرة والدأب وسعة الصدر. يمر أمامى الآن شريط طويل من الذكريات منذ نهاية الخمسينيات لم تتخلف أثناءها دقيقة واحدة عن محاضراتك ولم ترد سائلاً أو ساعياً للتزود من خبراتك وعلمك.

أستاذى الجليل حقاً إنك لم تنجب أبناء تقليديين ولكن ربيت خمسة أجيال ستظل وفية لتراثك وتاريخك المضىء معلماً مخلصاً للمهنة وصديقاً صدوقاً وأباً عطوفاً لجميع من تتلمذوا على يديك وما أكثرهم ستظل روحك وتعاليمك منارة لنا وإننا على الدرب لسائرون.

الأهرام – ١٤/٦/٢٠٠١

3 مصر يا أمه يا بهية

المشهد الأول

الزمان: ٨ سبتمبر ١٩٨١

المكان: مطار القاهرة الدولى

انطلق صوت رجالى من ميكروفون المطار يدعو الطفل هشام ممدوح طه إلى التوجه إلى خارج المطار للالتقاء بجدته السيدة بهية فهمى أبو زيد، التى كانت فى انتظاره بعد عودته من ألمانيا بصحبة أمه التى كانت تشارك فى أحد مؤتمرات الأمم المتحدة عن التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا وفلسطين.. كان الجو سبتمبرياً معتدلاً. فى ذلك الوقت، أصدر الرئيس السادات أوامره بإعتقال ١٥٣٦ معارضاً من المثقفين والمفكرين وأساتذة الجامعات وكان من بينهم أمه التى كانت تعارض اتفاقية كامب ديفيد لإنهاء الصراع بين مصر واسرائيل، وذلك فى إطار لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ضد الغزو الصهيونى والامبريالى التى كونتها جمعة المثقفين المصريين آنذاك. ذهب الطفل إلى جدته بصحبة أبيه واقتاد العسكر والدته إلى وزارة الداخلية لاستكمال إجراءات ترحيلها إلى سجن النساء بالقناطر الخيرية.

تابعت الجدة بهية سيارة الشرطة التى كانت تقل ابنتها حتى أبواب الداخلية، وصلت مع ابنتها حتى أبواب الداخلية، وصعدت مع ابنتها إلى حجرة رئيس المباحث الذى حاول تهدئة الموقف وإقناع الابنة بكتابة التماس إلى الرئيس السادات

obeikan.com

كى يعفو عنها. وهنا انبرت الجدة بهية بشموخ وثقة قائلة: نحن لا نتنكر لمبادئنا وابنتى لن تكتب أى التماس، لقد علمتهم منذ طفولتهم أن القضية الفلسطينية هى قضيتنا الأولى، وأن الصهيونية هى عدونا الأكبر.. فكيف تطلب من ابنتى أن تتراجع عن موقفها؟ مقابل ماذا؟ أن يعفيها السادات من السجن؟ الأشرف لها أن تسجن مع باقى زملائها وزميلاتها الوطنيين الحقيقيين.

تأثر الضابط بموقف الأم. وقال لها: «كلنا وطنيون، وما بنقبلش إسرائيل التى قتلت إخوتنا فى أربع حروب واغتصبت الأرض الفلسطينية، ولكن موقفنا محرج وما باليد حيلة». ردت الأم بهية بحزم: «الأفضل أنكم تخلصوا الإجراءات وتأخذوها على السجن. إحنا ما بنخافش وبنقول رأينا ولو على رقبتنا، وبنتى ما خانتش وطنها.. هى بتمارس حقها كمواطنة مصرية والسادات مش وطنى أكثر مننا.. ولعلمك أن أخويا محمد فهمى أبو زيد هو الذى أوى السادات عندما كان هارباً ومتهماً فى قضية مقتل أمين عثمان، وإحنا أصحاب فضل عليه».

حاول الضابط أن يهدئ الجدة بهية بكلمات غامضة غير مقنعة. ولما بلغ مرحلة اليأس من اقناع الابنة والأم بكتابة الالتماس، أمر بترحيل الابنة إلى سجن النساء بالقناطر.

فى اليوم التالى توجهت الجدة إلى نقابة الصحفيين، ثم حزب التجمع وأبلغتهم بأنها سوف توكل محامياً خاصاً غير المحامين الذين سوف يتم تكليفهم بالدفاع عن المعتقلين، ومنهم ابنتها، وكتبت خطابا تشجيع ابنتها وأرسلته إليها على عنوانها الجديد فى سجن القناطر.

بعد اغتيال السادات فى ٦ أكتوبر ١٩٨١، سمح للأهالى بزيارة المعتقلين، ذهبت الجدة بهية تحمل الأطعمة والحلويات والفاكهة والصحف والأشياء الخاصة التى

تفضل ابنتها استخدامها، والتقت بابنتها فى ساحة السجن، رأتها من نافذة حجرة المأمور. وكانت الابنة تقف على بعد ٥٠ متراً تحت الشجر الوحيدة فى فناء السجن. وكانت الجدة تتوجه كل يوم اثنين إلى السجن حاملة الأطعمة والفاكهة والصحف لكل رفيقات ابنتها فى العنبر، وفى المساء كانت أصواتنا تنطلق بالغناء (مصر يا أمه يا بهية يا أم طرحه وجلابيه) كانت تصر على عدم إعطاء المأمور رسائل لابنتها مما أقلق الابنة. وفجأة صاحت الدكتورة لطيفة الزيات وهى منكبة على قراءة الصحف والمجلات التى أحضرتها الجدة بهية: لقد اكتشفت أنها كتبت رسالتها إلى ابنتها داخل وجوه الكاريكاتير وبين سطور الصحف: «ذهب خالد محيى الدين لمقابلة مبارك»، «نبهت على المحامى بالتواجد مبكراً فى مقر المدعى الاشتراكى». «الطلبة وكلوا محاميا باسمهم للدفاع عنك».

وهكذا شريط من الذكريات يبدأ منذ كنت فى الثامنة من عمرى وكانت حرب فلسطين على أشدها نسمع عن عصابات الهاجاناه وشتيرن الصهيونية التى تداهم البيوت الفلسطينية وتبقر بطون النساء الحوامل وتمثل بجثث النساء والأطفال والشيوخ. كانت أمى تقرأ الصحف وتحكى لنا عن جرائم الصهيونية ضد الشعب الفلسطينى، غرست بداخلنا أنا وأخى شجرة أسمها فلسطين، وظلت ترويها حتى شببنا عن الطوق. وكان أخى يحلم بأن يكون ضابطاً لكى يشارك فى تحرير فلسطين، وكنت أنا أحلم بأن أكون صحفية لكى اكتب عن فلسطين. ومرت السنون.. وكان موضوعى للدكتوراه عن: (القضية الفلسطينية والصحافة المصرية).

المشهد الثانى

انتخابات مجلس الشعب عام ١٩٨٤:

فاتحنى رفعت السعيد حول ضرورة نزولى فى انتخابات مجلس الشعب عن دائرة

جنوب أسيوط. ترددت، وفى القطار المتجه إلى الوجه القبلى فاتحت أمى فى الموضوع، شجعتنى، وقالت «ليه لأ هما الرجالة اللى بيمثلوا الصعيد فى البرلمان أفضل منك أو أذكى منك أو أقدر منك على خدمة أهاليهم.. طول عمرك منتمية لقضايا الفقراء وهمومهم وجه الوقت اللى ترفعى فيه صوت أهلك المنسيين فى الصعيد وتدافعى عن مصالحهم.. ليه ترفضى الفرصة.. أى نعم هى تجربة مش سهلة لكنها تستحق إنك تخوضيها وأنا معاك وكل الشرفاء حيقفوا جنبك». خجلت من ترددى وحسمت أمرى، وقررت أن أخوض التجربة. وفعلاً كانت تأتى معى أسبوعياً من القاهرة إلى أسيوط ثلاثة أيام فى القرية وأربعة أيام فى القاهرة، أثناء موسم الامتحانات، وكان عميد الكلية قد هددنى بأننى لو تغيبت يوماً واحداً عن الامتحانات؛ فسوف يحولنى إلى مجلس تأديب. والواقع إنه قد نفذ تهديده رغم انتظامى فى حضور لجان الامتحانات ومساندة زملائى لى. فقد دأب على تلفيق بعض التهم الوهمية التى كانت تستلزم مثولى أمام مجالس التأديب بكلية الحقوق شهرياً، وقد برأتنى منها جميعاً وصار أعضاء هذه المجالس أصدقاء حميمين، بعد أن وضعوا لى خطة الدفاع ضد افتراءات رئيس الجامعة وعميد الكلية. وأذكر بهذه المناسب المساندة النبيلة التى لقيتها من بعض أساتذة كلية الحقوق عميدها آنذاك الدكتور فتحى سرور ود. مأمون سلامة ود. نعمان جمعة.

كانت أمى بهية فهمى تتابع معى يومياً فى المساء حصاد جولاتى الانتخابية فى قرى ونجوع جنوب أسيوط وتضع معى خطة اليوم التالى، وتحدد لى نوع الجلباب الذى ارتديه والمكياج الخفيف وتنصحنى بعدم التدخين أثناء جولاتى. وحذرتنى من تناول الطعام أو الشراب لدى البعض ثم الاعتذار عن عدم ذلك لدى الآخرين لأنه سوف يمس كرامتهم ويثير الحساسيات ويؤثر على مواقفهم منى. وكانت تجمع

كبار السن من نساء ورجال العائلة والعائلات المجاورة وتسألهم عن علاقات النسب والمصاهرة بينهم وبين العائلات فى القرى المجاورة، وتستقى منهم معلومات تفصيلية عن أوضاع الفقراء فى هذه القرى، ثم تقدم لى تقريراً فى المساء.. وقد ذهبت معى إلى كنيسة القرية مرتين مما كان له تأثير كبير على أقباط القرية الذين انتخبونى بالإجماع، وكانت تجمع أطفال القرية فى المندرة الكبيرة وتوزع عليهم الفانلات التى تحمل رسم الساعة (الرمز الانتخابى للتجمع) ومعها قصص وحواديت صغيرة للأطفال تحكى لهم بعضها، وتترك لهم الباقى ليقرأوه وحدهم. كذلك زارت بيوت الفلاحين الفقراء والأفارقة التى تتناثر على أطراف القرية. وكانت تشرح لهم البرنامج الانتخابى وتصحح لهم المفاهيم المغلوطة التى كان يروجها مرشح الحكومة وكان آنذاك محافظ أسيوط زكى بدر. وقد نجحت فى تجنيد مجموعة كبيرة منهم لمرافقتى فى جولاتى الانتخابية وحراستى من الكمائن التى كان يدبرها الخصوم.

ذكريات خاصة

كانت أمى تحدثنى عن شقيقها الطيار محمد فهمى الذى أوى السادات أثناء هروبه من المحاكمة فى قضية مقتل أمين عثمان فى الأربعينيات. وقد أرسلت له خطاباً تذكره بموقف شقيقها منه وتطلب أن ينقلنى من المعتقل إلى المنزل باعتباره المكان الأمين الوحيد رداً على قوله بأنه يتحفظ علينا «فى مكان أمين».. فى سجون مصر ومعتقلاتها، فأرسل لها ضابطين استقبلتهما فى منزلها، وأخبراها بأن الرئيس السادات يرسل لها تحياته ويؤكد لها أن ابنتها فى الحفظ والصون، وأنها ستخرج قريباً. كانت تذكر لى دوماً مواقف شقيقها الوطنية وشجاعته فى الدفاع عن كرامة مصر وعن عبد الناصر خصوصاً عندما أعلن استعداده لمبارزة السفير التركى رداً على الإهانة التى وجهها هذا السفير إلى جمال عبد الناصر عندما قابله فى أحد الاحتفالات فى نهاية عام ١٩٥٣،

وتحدث بسخرية واستهانة عن ثورة يوليو ورجالها.

كانت أمي أول من يقرأ الصحف فى الصباح، وقد تعلمت من والدها المهندس الذى شارك فى تشييد الكثير من الكبارى والمدارس والمبانى الحكومية فى أنحاء مصر أن تستيقظ مبكراً لتأدية الصلاة ثم قراءة الصحف بالصورة التقليدية أى لا تترك شاردة أو واردة فى الصحف دون أن تقرأها بتمعن. كانت تبدأ دوماً بالصفحة الأولى ثم صفحة الوفيات وبريد الأهرام وباب الحظ والأعمدة وأخيراً الإعلانات والحوادث. وفى السنوات الأخيرة كانت تبدى تذمرها من طغيان الإعلانات على المواد التحريرية. كانت فى مطلع شبابها تكتب فى مجلة الفصول خلال عامى ١٩٣٣-١٩٣٤ التى كان يصدرها الصحفى القدير محمد زكى عبد القادر، وكانت توقع بالحروف الأولى من اسمها مراعاة للتقاليد الصعيدية؛ إذ كانت تركز على قسوة التقاليد وضحاياها من النساء من خلال سرد قصص واقعية عن مآسى الفتيات اللاتى يتم تزويجهن رغماً عنهن لأشخاص فى عمر آبائهم ولهم زوجات وأولاد، وعن حرمان البنت من الميراث حرصاً على إبقاء الأرض الزراعية فى حوزة الأسرة، وعن ختان الطفلة الأنثى بقسوة على يد الداية المتجبرة وعن حوادث الثأر بين العائلات وإبادة أسر بكاملها ضحية لهذه الموروثات الضارة.

لقد رحلت أمي بهية مصر بعد أن سكبت فى روحى بإنسانيتها الفذة الانتماء لملح الأرض: فقراء الوطن، ولكرامة الإنسان التى لا يعادلها شئ فى الحياة، وفتحت أمامى نوافذ المعرفة الرحبة، كما رسخت فى ضميرى قيم العدل والاستنارة ودربت حواسى على التقاط الجمال والبهجة والمحبة من وجوه الأطفال الأبرياء.

سلام عليها يوم ولدت ويوم رحلت، وإنا على الدرب لسائرون.

جريدة الأهالى ١٣/ ٨/ ٢٠٠٣

4 طقوس الأحزان في الأمصار والأوطان

قدمنا العزاء لزوجة الفقيد وقريباتها وخرجنا إلى الخلاء حيث تتناثر الكراسى والآرائك المصنوعة من جذوع النخيل، جلسنا نرقب حلقات الرقص المكونة من الشباب والأطفال والكهول، كانوا يلبسون أزهى وأجمل الملابس الإفريقية الجديدة دعانى صديقى الأستاذ الإفريقى للمشاركة فى إحدى الحلقات وعلى نغم الموسيقى الإفريقية التى تثير الشجن، والتى كان يعزفها مجموعة من الأقزام يجلسون تحت إحدى الأشجار الضخمة.

اهتم الفراعنة بطقوس الميلاد والحياة ولكنهم أعطوا للرحيل اهتماماً أكبر وجسدوا هذا الاهتمام فى بناء مقابر ضخمة على شكل أهرامات مهيبة للحكام وحواشيهم وقدسوا الحياة الأخرى «حياة ما بعد الموت»، وتبنى المصريون الديانات السماوية ولكن ظلت الطقوس الفرعونية راسخة فى الوجدان تتشكل حسب الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام، ولكن جوهرها ظل جزءاً من نسيج الشخصية المصرية تتجدد مظاهره وطقوسه بتوالى الأجيال وبتعدد الديانات. وقد أتاحت لى رحلاتى العديدة فى كثير من البلدان والأوطان فرصة المشاركة فى بعض مناسبات الحزن العربى والإفريقى والهندى واليابانى والأوربى عدا مشاركتى الدائمة فى طقوس الحزن المصرية فى محيطها الصعيدى على الأخص.

فى اليابان، وقفت على باب المعبد أرقب النساء المتشحات بالملابس السوداء بصحبة ذويهم من الرجال جاءوا لإحياء الذكرى السنوية لأحد أقاربهم، دخلوا

obeikan.com

المعبد واستمعوا إلى بعض الخطب عن مآثر الفقيد ثم أدوا بعض الصلوات القصيرة أمام بعض التماثيل المقدسة، ثم خرجوا إلى القاعة الملحقة، والتى كانت تمتد بوسطها مائدة مستطيلة حافلة بأنواع الشراب اليابانى وأيضاً المأكولات اليابانية ذات الأحجام الرمزية وبعض الفواكه الجافة.

فى نيجيريا، شاركت فى جنازة والد أحد أساتذة الإعلام وقد أقيمت فى إحدى القرى التابعة لقبائل اليوربا، وجدت زوجة الفقيد يحيط بها بعض قريباتها وجيرانها يتصدرن القاعة ويجلسن على الأرض وتلتف عليهن ملاءات بيضاء ويسندن ظهورهن إلى الخداديات، وقد ربطن رؤوسهن بشريط ذى لون تيركوازى، ولما سألت لماذا اللون التيركواز، قيل لى لأن الفقيد كبير السن وقد أتم رسالته فى الحياة إذ أنجب ١٨ من الأولاد والبنات منهم الأطباء والمهندسون وأساتذة الجامعات والمعلمات ورجال الدين وقد أنجب هؤلاء ٤٨ ولداً وبنتاً وترك لهم ثروة كبيرة من المواشى والأراضى المزروعة وبعض المناجم.. لذلك لا تضع زوجته شارة غامقة اللون بل يضعن فوق رءوسهن إشارة مبهجة مثل التيركواز والبنفسجى.. قدمنا العزاء لزوجة الفقيد وقريباتها وخرجنا إلى الخلاء حيث تتناثر الكراسى والآرائك المصنوعة من جذوع النخل، جلسنا نرقب حلقات الرقص المكونة من الشباب والأطفال والكهول، كانوا يلبسون أزهى وأجمل الملابس الإفريقية الجديدة. دعانى صديقى الأستاذ الإفريقى للمشاركة فى إحدى الحلقات وعلى نغمات الموسيقى الإفريقية التى تثير الشجن، والتى كان يعزفها مجموعة من الأقزام يجلسون تحت إحدى الأشجار الضخمة.. انضممت إلى إحدى الحلقات وبعد أقل من ربع ساعة انسحبت وأخذت مكانى على الأرائك الخشبية، وإذا بإحدى الشابات تتقدم نحوى بكأس خشبى صغير ممتلئ بالشراب الوطنى لديهم، ثم دعونى لتناول الطعام على

مقربة من المكان وسط الغابة الفسيحة.. وجدت موائد الطعام ممتدة لأكثر من مائة وخمسين متراً وتزخر بالخراف والغزلان المشوية والأسماك والطيور والفطائر والخضراوات الإفريقية المطهوة خصيصاً لهذه المناسبة علاوة على الفواكه الإفريقية المميزة. لاحظت أن الجميع يقبل على الطعام بشهية وبلا حزن. بعد انتهاء الطعام اقتربت منى الحفيدة الكبرى للفقيد، وبدأت فى الغناء ثم شدتنى لمشاركتها فى حلقة الرقص مرة ثانية، ولما اعتذرت لها قالت لى إن الفقيد يستحق أن نرقص ونغنى له لأنه أكمل رسالته وتركنا متعلمين وأثرياء ولنا نفوذ فى كل أنحاء نيجيريا.. فلماذا نحزن؟!

قلت لها نحزن على الفراق، ردت قائلة: لقد فقد فى أيامه الأخيرة حاسة السمع وكنا نتخاطب معه بالإشارة وظل مقعداً عن الحركة لمدة عام ونصف العام. وكان قد بلغ الثانية والسبعين من عمره، وقد لا تعلمين أننا نؤمن بأن جسده فقط هو الذى يفنى أما روحه فهى تذهب إلى حيث يوجد الأجداد الذين سيفرحون بذهابه إليهم، ولن يكون وحيداً بل سوف تلتقى أرواحهم، فالأرواح لا تموت.

بعد مرور عدة سنوات، ذهبت إلى غانا ودعتنى زوجة الوزير المفوض بالسفارة المصرية للذهاب معهاً إلى إحدى الجنازات لأنها كانت تعلم مدى اهتمامى برصد أشكال الحياة الإفريقية فى الأحزان والأفراح. ذهبت معها كانت الجنازة لطفل في التاسعة من عمره، وكانت أمه فى حالة شديدة من الحزن وتجلس فى إحدى زوايا المنزل ويحيط بها قريباتها.. وبعد تقديم واجب العزاء جلسنا على كراسى متواضعة متناثرة فى الساحة الممتدة أمام المنزل.

كانت حلقات الرقص بطيئة وحزينة وقد تشكلت جميعها من كبار السن والشباب، وكانت النساء المسنات يطلقن أحياناً بعض الآهات الموجعة للقلب

والمصحوبة بكلمات العديد الشجية المشحونة بالأسى.. ورغم أننى لم أفهم اللغة (الماندينج) إلا أنها كانت غنية عن أى تفسير. ورفضت أن أتناول الطعام، ولكنهم ألحوا على فى ضرورة مصاحبة الأم فى حلقة الرقص كى يخففوا عنها وطأة الحزن ففعلت وأحسست بالراحة.

عندما ذهبت إلى فرنسا فى مهمة علمية فى أوائل التسعينيات من القرن الماضى، كنت أقيم فى إحدى العمارات القديمة فى ساحة السوربون، وفى يوم ما كنت أسرع القفز فوق السلالم كى ألحق بموعد مع أحد الأساتذة فى الجامعة.. استوقفنى فى الدور الثانى مشهد إحدى جاراتى تتناقش مع زوجة البواب وهى برتغالية الأصل ثم سلمتها المفاتيح وانصرفت بسرعة، وتأملت وجه زوجة البواب البرتغالية فوجدته ممتلئاً بالحزن الممزوج بالغضب سألتها عما بها قالت: إن هذه الجارة قد تركت لها المفتاح كى تقوم بإجراءات الدفن لوالدتها التى ماتت فى الصباح، وانصرفت هى إلى عملها.

جلست على السلالم كى ألتقط أنفاسى وأفيق من الصدمة.. كيف وما هذا الذى يحدث فى فرنسا؟ إلى هذا الحد تهون الأمهات على الأبناء والبنات؟ فليذهب العمل إلى الجحيم، ولكن قدسية الأم والأب وقدسية الموت أيضاً لها طقوسها فى جميع الأديان والحضارات.

فى الهند، شهدت طقوس حرق الميت، ولكن من القاعة الخارجية للمحرقة إذ لا يسمح بدخول المحرقة ذاتها إلا للمقربين جداً مثل الأبناء والأخوات والأزواج والزوجات واصطحبنى أصدقائى فى موكب توديع رفات الميت الذى أصبح رماداً، أودعوه فى صندوق من خشب الصندل المعطر، وذهبنا إلى النهر المقدس حيث قام أكبر أبنائه وأكبر إخوته بنثر رماد الجثة التى احترقت، وكانت زوجة الفقيد ونساء

الأسرة يولولن فى لوعة مثيرة للأسى، وكان الموكب الحزين يضم رجالاً مطأطئى الرؤوس ونساء يلتف حول أجسادهن السارى ذى الألوان الداكنة ويحاولن مواساة زوجة الفقيد وأسرته.

فى صعيد مصر وعلى الأخص فى القرى القابعة فى حضن الجبل الغربى كانت طقوس الحزن منذ نيف وأربعين عاماً لدى الغالبية من أهالى الصعيد تبدأ بعجن الطين ووضعه فوق رءوس النساء وعلى صدورهن وإقامة المعادات التى تتكون من الندابات اللائى يضربن بالدفوف، يحيط بهن حلقات النساء يلطمن الخدود ويضربن على الصدور، ويستمر الوضع هكذا حتى يسدل الظلام أستاره، ويعلن الليل عن مجيئه، حينئذ تصطف مواكب النساء فى المنادر وتبدأ المعددة فى ذكر مآثر الفقيد من خلال الأشعار الشعبية التى تلائم الحالة مع مراعاة عمر الفقيد. ولا يسمح بإشعال المواقد فى منزل الفقيد، بل تعتمد الأسرة على الصوانى القادمة من بيوت الأقارب والجيران، ويستمر العزاء مفتوحاً أربعين يوماً للنساء والرجال. أما فى السنوات الأخيرة فقد تغيرت كثيراً هذه الطقوس، وأصبح العزاء مقصوراً على الأسبوع الأول ثم «الخمستاشر» ثم «الأربعين» واختلفت تماماً عادات وضع الطين، كما حل مكان المعددة قارئة للقرآن للنساء فى داخل المنادر وقارئ للرجال فى الصوان الخارجى، ولكن لا يزال المنادى الذى يجوب الأزقة والحوارى معلنا عن وفاة أحد أهالى القرية مستمراً فى أداء دوره واختفت تقريباً طلعة الخمستاشر لزيارة القبور وتوزيع الكعك والفاكهة والبلح واستمرت طلعة الأربعين والمراسم والأعياد.

أما فى عاصمة المحروسة ومدنها الكبرى فتتحول طقوس العزاء إلى منتديات لتبادل الأخبار الاجتماعية والمشاعر فى مجالس النساء والصفقات واتفاقات العمل

فى مجالس الرجال، وتتنافس العائلات على إقامة مراسم العزاء فى المساجد الكبرى مثل مسجد عمر مكرم الذى ظل يحتكر هذا التقليد سنوات طويلة.. وفى دول الخليج لا تزيد فترة الحداد على ثلاثة أيام تقام خلالها الموائد العامرة بالأطعمة والمشروبات ومحظور ارتداء الأسود بل يلبسون الملابس الكتانية البيضاء ومحظور على الزوجة مغادرة المنزل بعد وفاة زوجها لمدة أربعة أشهر (فترة العدة).

أدام الله أفراحكم وأنزل السكينة والصبر الجميل بقلوبكم.

الأهالى - ديسمبر ٢٠٠٣

obeikan.com

5 رثاء.. رحيل مناضلة

أستاذتى الجليلة فاطمة زكى
ومعلمتى الحبيبة الغالية

كم سنفتقدك عند مطلع كل شمس وعندما يبدد ضوء القمر بعض مساحات العتمة التى تحاصرنا. لقد كانت البداية فى رحاب جامعة القاهرة فى نهاية الخمسينيات، وكنا مجموعة من الطالبات بكليات الآداب والحقوق والتجارة وكان لقاؤنا نقطة تحول فاصلة فى حياة كل منا، حيث بدأنا رحلة المعرفة والنضال التى مازلنا نواصلها حتى اليوم سيراً على دربك واستلهاماً لنضالك الدؤوب من أجل إزالة القبح والشوائب التى تشوه وجه الوطن ومن أجل مساندة كل طفل وامرأة ورجل لمحت فى عيونهم احتياجاً أو ضعفاً أو تعاسة أو حيرة.

كان لقاؤنا الأخير فى المؤتمر الرابع للصحفيين الذى عقد بنقابة الصحفيين فى الشهر الماضى كنت أعلم أن معاناتك من المرض لن تعوق مطلقاً قدراتك الهائلة على قهر الآلام وكسر تعليمات الأطباء والحرص على الالتحام بالبشر حيثما وجدوا، هؤلاء البشر الذين انتميت إلى فقرائهم ومستضعفيهم ومنحتهم أجمل سنوات العمر إنصاتاً لآلامهم وتعاطفاً صادقاً مع انكساراتهم ومخاوفهم وقدرة روحية رفيعة على تحمل نزواتهم وحماقاتهم وإيماناً جسوراً بمكنوناتهم الخفية التى تحمل الخير والذكاء والرغبة الأصيلة فى إثراء الحياة والبناء من خلال الأغانى للحياة والجهد الصادق والتواصل الحميم مع الآخرين.

لقد لمحت فى لقائنا الأخير كيف تحول جسدك النحيل إلى طاقة نور تمشى

الأرض تشع صفاء ومحبة وحكمة تمنيت دوماً لو أمتلك ذرة صغيرة من صفاتك وحكمتك وعطائك السخى بلا شروط لكل من اقتربوا منك. دائماً كنت أراك تسرعين الخطى كى تلحقى بإحدى جاراتك لمساعدتها فى رعاية طفل معوق أو استقبال طفل جديد وكنت المحك على رأس المظاهرات فيسرى فى كيانى الاطمئنان والثقة فى المستقبل كنت نبعاً لا ينضب للأمل ومستودعاً أزلياً للتفاؤل ولا أنسى كلماتك لى فى آخر مظاهرة ضمتنا فى ميدان التحرير منذ عامين، عندما قلت لى: «نحن لا نملك رفاهية اليأس علينا أن نواصل وهناك أجيال جديدة واعدة سوف تكمل المسيرة لا تيأسى، ولكن لا تتوقفى عن الغضب فهو الجذوة التى تدفعنا إلى الأمام».. وكانت تشير بأصابعها إلى عشرات الفتيات والفتيان الذين يهتفون للقضية الفلسطينية وللسيادة الوطنية وضد الهيمنة الأمريكية معلمتى الجليلة اهدئى واطمئنى فمهما اشتدت الأزمات وحاصرتنا السحب السوداء، فإن هناك أياماً مقبلة سوف تشهد الثمار التى وضعت بذورها فى أرضنا الطيبة، وإننا على الدرب سائرون.

جريدة الأهالى ٢٨ إبريل ٢٠٠٤

6 في دوار محمد عودة

أستاذى الجليل... لا أدرى من أين أبدأ معك وأنت تسكن الروح والوجدان ويستظل عقلى بكل ما تعلمته من مشوارى الطويل معك ومن مسيرتك المضيئة ومن فيض أبوتك وأستاذيتك وإنسانيتك المتدفقة . محمد عودة تعلمت منك كيف أنتمى للوطن من قراءة وجوه فقرائه والتعلم من خبرة تاريخه العربى ومن عشرات ثواره النبلاء تعلمت منك وتعلم منك جيلى والأجيال التى جاءت بعدى معنى الالتزام بالكلمة المكتوبة وضرورة الحفاظ على قدسية المهنة الجليلة التى ننتمى إليها والدفاع عن حقوقها وكرامتها وثرائها.

كنت لنا بوصلة تنير لنا طريق الحياة وكانت حاجتنا لك تشتد كلما أدلهمت الظروف وحاصرتنا معوقات المتربصين بالشرفاء وما أشد احتياجنا إليك فى تلك الأيام والليالى حالكة الظلام . . وعندما كانت تختلط علينا الأمور ويستعصى علينا فهم ما يحيط بنا من كوارث وأزمات كنا نسرع إلى بيتك الذى تحول إلى دوار للمحبين والتلاميذ المخلصين بل إلى مرفأ نلجأ إليه كى نستلهم منك الحكمة والأمان واليقين وكى نلملم أشلاء النفوس التى أرهقتها عوادى الزمن وقهر اللاهثين خلف السلطة والنفوذ والثروات المحرمة على حساب كل المقدسات «الوطن والدين والأخلاق» وكنا نفارقك وقد تجددت الدماء فى شراييننا وسطعت أمامنا الحقيقة الغائبة.

كنا نلجأ إليك وقد استبد بنا القلق على مصير الكادحين الشرفاء فى هذا الوطن المنكوب دوماً بحكامه المستبدين وسارقى جهد وعرق وحقوق كل البسطاء

والكادحين وهؤلاء المصادرين على مستقبل أجياله . كانت كلماتك المليئة بالثقة فى قدرة شعبنا العظيم تبدد القلق وتفتح نوافذ الأمل . وكنا نندهش ونتعجب لهذا القدر الهائل من التفاؤل الذى لا ينضب وإصرارك على أن الأيام القادمة تحمل الخلاص إذ كنت دوما توصينا بأن نتسلح بالتفاؤل الواعى والتمسك بالثوابت وألا ندع تفاصيل الحاضر المحزنة تسرق منا القدرة على الاستمرار والصمود والثقة فى المستقبل لأننا إذا فعلنا ذلك سوف نحقق أهداف أعدائنا أعداء الحياة والتقدم وهذه هى الهزيمة الحقيقية فى نظرك . هل أبدأ معك من عام ١٩٥٨ عندما كنت شابا متدفقا بالحيوية والحماس والتقيت بنا مجموعة من الشباب الجامعى جئنا إليك فى صحيفة الشعب كى نكتشفك وتكتشفنا جئنا إليك مبهورين بكتابك العظيم عن الصين الشعبية وكانت كلماتك لنا آنذاك هى بداية الطريق الصحيح الذى كانت تزداد وعورته كلما خطونا فى دروبه الشاقة ولكنك كنت كالشمس تبعث فينا الدفء بحرارة إيمانك الأسطورى بهذا الشعب وقدراته الخفية . كنت تضيف لنا بسخاء غير مسبوق خبراتك الحياتية واستبصاراتك الذكية وفهمك العميق لمجريات الأحداث والتقلبات التى مرت بها مصر خلال الفترة الناصرية . وعندما جمعتنا سجون القناطر وطرة فى معارك النضال ضد استسلام السلطة الساداتية أمام الضغوط الصهيونية والأمريكية لو تفارقك روح السخرية من الحكام المهزومين وواصلت دورك الشجاع فى بث روح المقاومة ومواجهة الطوفان بالحكمة والصبر والمثابرة [illegible] النضال بالكلمة والموقف فى زمن تراجع فيه الكثيرين وخبا الأمل [illegible] العديد من رفاق الطريق. وعندما طوقتنا أسوار الفساد وعلت أمواج [illegible] واشنطن وإسرائيل لمعت عيونك ببريق التحدى وكانت [illegible] سيف القاطع (ارفعوا هاماتكم واشحذوا إرادتكم ولا تستسلموا [illegible] المرحلة الحالية ليست سوى انعطافة قصيرة فى تاريخ الوطن الممتد وسوف يأتى

يوم قريب تنقشع فيه هذه السحب السوداء وتسطع الشمس من جديد حينئذ سوف تختفى الخفافيش وينتحر الأقزام ولصوص الوطن).

أستاذى الجليل.. لقد كنت تستعيد معنا خبرة الثورات وحكمة الرواد العظام الذين أضاءوا حياة شعوبهم نهرو فى الهند وماوتسى تونج فى ين وهوشى منه فى فيتنام وجيفارا وكاسترو فى كوبا والليندى فى شيلى وعرابى فى مصر. كنت دائما تؤكد لنا أن المناضل الحقيقى هو الانسان الذى يواجه تحديات الحياة فى أبسط صورها وأعقدها بنفس روح الالتزام والتسامح والفهم الواعى لتناقضات البشر وعاديات الأيام الصعبة.

كنا نخرج من دوارك الرحب الذى كان يتسع بقدر رحابة واتساع قلبك وعقلك لنا وكنا نتساءل فى انبهار ممزوج بالحيرة (كيف احتفظت بهذه القدرة النادرة على الحب والوعى والتفاؤل رغم كل ما عاصرته من محن وصعاب صادفت مسيرة جيلك ومسيرك الشخصية).

ما أبدع ترفعك عن الصغائر والمنافع الشخصية لم تسع يوما إلى منصب صغير أو كبير أو اقتناص مصلحة شخصية! أو منفعة زائلة وبقدر ما أدهشنا ترفعك النبيل لكننا تعلمنا منه الكثير وتعلمنا أيضاً من قدرتك الفذة على احتضان جميع الأجيال من النساء والرجال الذين أسعدهم الحظ من الاقتراب من محيطك وكم سعدوا بسخائك الإنسانى النادر. كما تعلموا وسعدوا بمتابعة معارك الفكرية التى كنت تخوضها بشفافية دون إسفاف أو سقوط فى متاهات أو صراعات شخصية.. لقد كان وضوحك الفكرى ونزاهتك الأخلاقية منارة لنا وستظل قدوة لكل من يحمل قلماً للدفاع عن كرامة هذا الوطن وحقوق أبنائه وبناته. لقد تركت لنا مخزوناً هائلاً من المحبة الواعية والعطاء غير المشروط واليقين والأمل والثقة بقدرات الإنسان

المصرى.

أستاذ عودة ..

كم سنفتقدك وأى قدر هائل من الفرح والأمل سوف يطوق بنا عندما نستعيد ذكريات جلسات لتعلم منك وجولاتنا فى أحياء مصر الشعبية التى كنت تسميها الرئة الحقيقية للشعب المصرى الصابر والصامد والقادر على خلق الفرح وانتزاعه من وسط الأحزان والملمات. تتدفق الذكريات ولا ننسى لمساتك الحنونة وتشجيعك المتواصل وتعاطفك مع تعثراتنا واحباطاتنا وحماقاتنا.

لقد تعلمنا منك كيف أن القراءة الواعية هى المفتاح الأساسى للاستنارة ولكن أيضا الالتحام بالبشر ومشاركتهم همومهم وسعيهم الدائم للنهوض والفهم الواعى والحنون لأحوالهم وإحباطاتهم هو الخطوة الحقيقية لمساعدتهم على إزالة القبح والظلم والاستكانة والهزيمة النفسية وفتح طريق الأمل والخلاص أمام اليائسين والميئسين .

أستاذ عودة ..

سلام عليك فى حياتك وفى رحيلك يا أنبل من عرفت وأصدق من رافقت وإننا على الدرب لسائرون.

العربى الناصرى ٢٠٠٦

7 وداد متري – قلب بحجم الوطن

فى وداع مواطنة مصرية:

من أين أبدأ معك يا رفيقة الدرب الطويل هل أبدأ بإضراب المعلمين الذى تصدرت قيادته ودفعت أنت ورفاقك الأجلاء الثمن غالياً عندما حرمتكم سلطة العسكر من ممارسة المهنة الجليلة التى انتميت إليها مهنة التعليم وتربية الأجيال ولكنك استمررت تمارسينها بإصرار وصبر مع كل محبيك وأصدقائك وجيرانك وأقاربك وتركت فى قلوب الجميع وعقولهم نقطة نور تستعصى على الانطفاء مهما مرت السنوات وتوالت نكبات الزمن الردئ.

وداد مترى أين يبدأ معك الزمن وكيف ينتهى أو يتوقف وكيف تواتينى الذاكرة كى أسرد مئات المواقف التى وقفت فيها شامخة صامدة محبة تساندين من خذلتهم الظروف وأنهكت قواهم الكوارث الصغيرة والكبيرة وتمسحين دموع المكلومين فى فقد أحبائهم وتشيعين البهجة والفرح فى قلوب ونفوس المكدودين وترفعين من شأن أى انتصار أو نجاح صغير يحرزه شاب أو شابة فى مقتبل حياتهم وتتابعين بدأب وصبر أخبار الوطن وانكساراته من الصحف والتليفزيون والمنتديات والمظاهرات كيف احتمل ومعى كل الرفاق غياب وجهك الذى يضم فى ملامحه وتعبيراته شجن المصريين منذ بداية الخلق يتجسد فى عيونك وسخرية المصريين الرفيعة وقدرتك الفذة على انتزاع البسمة من شفاهنا وسط أكوام الهموم التى تحاصر الوطن والإنسان على أرضنا الطيبة التى أنجبتك وشهدت مسيرتك الشاقة

وإصرارك على تجميل وجه الحياة و'حتضان أهالى المناضلين وصغار المحبين وغرامك بتاريخ الوطن وعشقك بليالى القمرية فى صعيد مصر وفى العراق والسودان وأصوات محبيك التى لا تتوقف عبر الهاتف من جميع الأوطن تسأل بلهفة عن أخبارك كى تطمئن على أنك مازلت هنا تفتحين أبواب الأمل والتسامح وتسكبين بهدوئك وابتسامتك الشفافة شحنة رقيقة من الطمأنينة والسكينة فى نفوس هؤلاء الذين لا تتركين مناسبة خاصة أو عامة دون أن تستضيفهم فى دارك التى اتسعت رغم ضيق المكان بقدر رحابة قلبك وفيض عشقك للبشر وللجمال وقدرتك الفذة على التقاط كل ما هو إنسانى وأصيل لن أنسى يوم أن اصطحبتنى إلى منزل والدة الشهيد محمد عثمان وظللت طوال الطريق تحكى لى عن قصة بطولة هذه السيدة ودورها العظيم فى إخفاء المناضلين رفاق إبنها عن عيون مضطهديهم وجلاديهم ولن أنسى عشرات المواقف لأخرى التى كنت تخفين فيها آلام المرض وقسوته وتصرين على المشاركة دون تفرقة أو تمييز بل مع الجميع وكأنه حق مقدس لنا ما أبهاك وما أروع تكوينك الإنسانى المرهف وسأظل أتذكر دوماً حرصك رغم المرض وظروف رعايتك لزوجك المريض على المشاركة سواء بحضورك أو استضافتنا فى رحابك فى أفراحنا غنيت معنا وفى أحزاننا تدفقت دموعك وفى إنكساراتنا كنت بلسماً ودواء وفى إفطار رمضان كانت مائدتك السنوية تضم جميع الأجيال من المسلمين والمسيحيين من أهل اليسار واليمين دون تفرقة.

وداد مترى لن تغيبى فقد غرست ونسجت وأحببت وتفانيت وربيت واحتضنتى وساندت ورعيت دون كلل أو ضجر ولن يذهب جهدك سدى بل سوف يتوج حصادك بمئات الزهور الواعدة المعطاءة التى سوف تنشر الحب وتشيع البهجة وتعطى المثل وتواصل مسيرتك الجليلة يا أخلص وأعز من رافقت وعرفت وإننا على الدرب لسائرون.

الأهالى ٢٠٠٧

8 رثاء.. رحيل ليلى مندور وزينب عزب

فقدت هذا الأسبوع صديقتين من أعز وأخلص الصديقات فى زمن ندر فيه الوفاء والصدق، الصديقة الأولى عاصرت معى حقبة جميلة من عمر جيلنا فترة الدراسة الجامعية عندما كانت الجامعة تزهو بطلابها وأساتذتها وتفسح أفقاً رحباً لفكر الأساتذة ونشاط الطلاب، هذه الصديقة ليلى مندور ابنة أستاذنا الجليل الدكتور محمد مندور الذى تعلمنا منه الكثير فى محاضراته وندواته وجلساته المنزلية، درس فى الجامعات الألمانية والفرنسية وعاد إلى الوطن محملاً برسالة ظل يبثها لطلابه ورفاقه على مدى ثلاثين عاماً، أسس علم النقد الأدبى والمسرحى فى مجال تخصصه وشارك بجسارة العالم وجرأة المناضل الحقيقى فى جميع المعارك التى خاضها الوطن فى الخمسينيات والستينيات وطورد وسجن ولكنه ظل قابضاً على الجمر ضارباً المثل والقدوة لتلاميذه فى كافة أنحاء الوطن وأصبح أسمه رمزاً لمدرسة كاملة من المبدعين والمناضلين المؤمنين بحق هذا الوطن وأبناءه فى حياة جديرة بالكرامة والسيادة والعدالة والحرية، كانت محاضراته أنشودة علمية فى حب الوطن وكيفية النهوض به، وحلقات متصلة من الفكر النبيل والثقافة الرفيعة المنتمية لصناع الحياة الحقيقيين، تزوج أستاذنا المناضل إحدى تلميذاته النجيبات الشاعرة ملك عبد العزيز وأنجب منها خمسة أبناء كانت ليلى كبراهم تخصصوا فى الاقتصاد والهندسة والطب والجيش الوطنى أعطوا لوطنهم الكثير واستشهد أوسطهم العقيد ماجد مندور فى حادث الطائرة المشئومة التى راح ضحيتها الفريق

أحمد بـدوى أبـرز أبطـال حـرب أكتـوبر ١٩٧٣، وتـزعم أحـدهم – خالـد منـدور – اللجـان الطلابيـة المسـاندة للثـورة الفلسـطينية بكليـة الهندسـة واضـطر تحـت وطـأة المطـاردة الأمنيـة إلى الهجـرة المؤقتـة إلى إحـدى دول الخلـيج وظلـت لـيلى وحسـام وطارق يواصلون عطائهم للوطن بـإخلاص ومثـابرة فى الإذاعـة ومعهـد التخطيط وطب الأسنان.

أما الصديقة الثنية فقد عاصرت مرحلة أخرى من عمر جيلنا فقد كانـت زوجـة لأستاذنا الجليل عبـد الملك عودة أطال الله عمـره، والـذى كـان ولا يـزال سـنداً وفيـاً لطلابه وزملائه وانتمى إلى السـاحة المهمشـة القضـايا الافريقيـة التـى أثراهـا بغـزارة إنتاجه وظل وفياً لهمومها وتحدياتها حتى الآن، هذه الصديقة الشاعرة زينـب عـزب التى شاركت منذ كانت طالبـة بكليـة الآداب فى المعـارك الفكريـة والوطنيـة وكانـت رمزاً مشرفاً للمرأة المصرية ثم اكتفت بأن تعيش فى ظل زوجهـا الأسـتاذ الأكـاديمى المرمـوق ولكنهـا لم تتوقـف عـن العطـاء والمشـاركة مـن خـلال أشـعارها ودواوينهـا العديدة التى تميزت بالشفافية والصدق والمعاناة الإنسـانية كتبـت للـوطن والإنسـان العربى فى اليمن والجزائر وللأجيال القادمة من خلال أشعارها للأحفـاد «البوابـات الخضر» وظلت سنداً لكل من اقترب منها ومن تلاميذ زوجهـا، وأذكـر أننـى عنـدما عشت تجربة زواج نجلى واجتاحتنى أحاسـيس لم أكـن أتوقعهـا أحاسـيس الأم التـى تنجب وتربى وتصادق أبنائها وتتخذ منهم رفقاء الحياة ثم تفاجئ بأنه فى زمن محدد لابد أن تقدمهم هدية للمجتمع، وإن عليهـا أن تفطـم مـنهم كـما فطمـوا منهـا وهـم أطفال صغار انتحيت ركناً فى غرفة قصية وانخرطـت فى موجـة بكـاء أسـطورى ثـم مسحت دموعى وتـذكرت هـذه الصـديقة النبيلـة وكانـت وقتهـا فى إعـارة لزوجهـا باليمن الشقيق كتبت لها رسالة أودعتهـا أحاسـيس كـأم لطفـل وحيـد أصـبح رجـلاً سيزف بعد لحظات إلى رفيقة أخرى: عاشت معى زينـب عـزب كافـة معـاركى ضـد

الظلم والتعنت الذى لاقيته فى جامعتى ولا أنسى محادثتها التليفونية وهى تبكى لأمى وتخبرها بأننى قد نقلت من الجامعة إلى وزارة الإسكان فى أعقاب أحداث سبتمبر ١٩٨١ ورد أمى المذهل كى ترفع معنوياتها إذ قالت لها لقد تعودنا على مواجهة الظلم ولكن إيماننا الدائم بالحق وعدالة السماء تقوينا وتشد من أزرنا، لا تحزنى يا زينب إنها شدة وتهون وستعود ابنتى ورفاقها إلى الجامعة وحأفكرك.

وقد حدث بالفعل وعدنا إلى الجامعة واستقامت الأمور بعض الوقت وها نحن نواصل السير على الجمر رحم الله أمى وزينب عزب وليلى مندور وإننا على الدرب لسائرون.

صوت الجامعة ٢٧ مارس ٢٠٠٦

obeikan.com